الظاهر بيبرس ودوره في إرساء دولة المماليك البحرية
(620– 676هـ/ 1223 – 1277م)

أ.أسمهان محمد عبد السلام عبد الجليل
كلية الآداب الزاوية– جامعة الزاوية

مقدمة:

برز في العصر المملوكي كثير من سلاطين المماليك كان لهم دور كبير في تغيير كثير من صفحات التاريخ، كما تركوا بصمات واضحة في التاريخ الإسلامي، وكان من هؤلاء ركن الدين بيبرس، السلطان الملك القاهر ثم الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي، سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية وهو الرابع من ملوك الترك، مولده في حدود العشرين وستمائة بصحراء القبجاق تخميناً.

ويعتبر الظاهر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك لما قام به من أعمال شملت تنظيمات وعمران وغير ذلك، وكان من أهم أعمال بيبرس إحياؤه الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659هـ/ 1260م، بعد أن قضي عليها التتار في بغداد. مما أكسبه سلطة شرعية مدعومة بموافقة الخليفة العباسي، وقام بكثير من الأعمال لصالح الإسلام والمسلمين، كما قوى الجيش، وكرس همته في محاربة الصليبيين، ولذلك يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية في مصر.

إشكالية البحث:

تكمن إشكالية البحث في اتهام الدولة المملوكية كثيراً بالضعف الحضاري، والهزال العلمي الفكري، ولكن التاريخ الصحيح يُكذب ذلك؛ فقد كان لفنون الحضارة مكان عزيز عند المماليك؛ فمن ذلك جهودهم التي قاموا بها في مجالات الإصلاح الداخلي من خلال تطوير الجهاز الإداري، وتعديل نظام القضاء، فضلاً عن إحياء الخلافة العباسية، ولم تقتصر

أعمال الظاهر بيبرس على ذلك، بل استمر في إرساء دعائم دولته فقاد الجيوش الإسلامية لإنهاء الاحتلال الصليبي في بلاد الشام ودخل بلاد الروم، وكبح جماح المغول.

من خلال ما سبق تكمن إشكالية الدراسة في التساؤل الرئيس التالي:

- **ما دور الظاهر بيبرس في إرساء دولة المماليك البحرية؟**

ويتفرع من هذا التساؤل التساؤلات الفرعية التالية:

1- ما هي الظروف الرئيسية التي أدت إلى ظهور بيبرس؟
2- ما هي الأحداث التي شهدتها الدولة المملوكية في عهد الظاهر بيبرس؟
3- لماذا أحيا الخلافة العباسية؟
4- كيف كانت فتوحات بيبرس، وغزواته؟

أولاً- أصل المماليك:

كانت سلالة المماليك التي تكونت في مصر وبلد الشام ذات وضع غريب في تاريخ السلالات، لأنها إذا صح اعتبارها سلالة فكانت كما يستد لمن اسمها سلالة عبيد من أجناس مختلفة، وقوميات متباينة، أقامت دولة عسكرية في بلد ليست بلدهم، فإذا ما تأحده مكان الذي يتولى الحكم من بعده في الغالب ليس ابنه بل أحد عبيده أو بعض المرتزقة من أتباعه ممن تميزوا بعمل كبير أو أحرزوا شهرة كبيرة، وهكذا فإن عبد الأمس كثيراً ماكان يصبح قائد جيش ليغدو في المستقبل السلطان الحاكم، وبقى السلاطين العبيد يحكمون بالسيف بقعة من أشد بقاع الأرض اضطراباً نحوا من قرنين وثلاثة أرباع القرن (267) سنة، ومع أنهم كانوا غير مكترثين بأحوال السكان ومشاغلهم وغير مثقفين، فإنهم حافظوا على الدولة، وأدوا خدمات كثيرة إلى الإسلام.[1]

لقد كان المماليك رقيقاً من أجناس متعددة حملهم إلى المنطقة تجار رقيق من المناطق الواقعة في بلد القفقاس وتركستان،[2] وقد استخدمهم الأيوبيين على نطاق واسع، وأصبحوا من جملة مقتنيات السلطان الذي أفرد لهم ثكنات خاصة، وعمد إلى تدريبهم على الأعمال الحربية والفروسية، كما جرى تنظيمهم عسكرياً، فشكلوا طبقة عسكرية حاكمة، وشكلوا لنفسهم مجتمعاً خاصاً بهم،[2] إنهم شكلوا طبقة عسكرية حاكمة ولم يستطيعوا تشكيل طبقة أرستقراطية حاكمة، إذ كان ينقص مجموعتهم عدة شروط من مقومات الطبقة الأرستقراطية

الحاكمة: منها الاستثمار المنتج والوراثة والاستقرار، أما الوراثة وإن نجحت نسبياً في اعتلاء عرش السلطنة، فإنها لم تنجح أبداً في الإرث العائلي، إذ لم ينجح السلاطين والأمراء في ضم أولادهم إلى الطبقة العسكرية الحاكمة إلا أحياناً نادرة، ففي دولة المماليك لم يكن القطاع مضمون البقاء في يد صاحبه، فكان يسقط عنه حين الوفاة أو إذا غضب السلطان عليه، أما الشرط الثاني فكان الاستقرار والعيش بطمأنينة وهدوء، فبالرغم من أن الأرستقراطية تعمد إلى المنافسة الحرة أو المبنية على الخديعة، ولكنها لا تتوسل العنف الدموي بشكل فتن وثورات فيما بينها تحقيقاً للمآرب الخاصة، والعصر المملوكي كان سلسلة متلاحقة من الفتن والثورات الدموية، أما الشرط الثالث فهو أن المماليك يتسلطون على خيرات البلد وعلى التجار والحرفيين عوضاً عن شروعهم باستثمار أموالهم الطائلة.[3]

وهذه الطبقة عاشت بعيدة عن مآسي الشعب وآلامه خصوصاً أن العامل المالي كان المحرك الرئيسي لها، ولم تذكر المصادر المملوكية أن أمير اًو احداً عاش حياة فقر أو بؤس أو شكا يوماً ضيق ذات اليد،[4] كما أن هذه الطبقة كونت لنفسها مجتمعاً خاصاً بها كي لا تختلط بالسكان الأصليين، وعدم الاختلاط بالسكان يعود إلى أن المماليك عند تأسيس دولتهم سنة (468هـ – 1250م) قد شعروا بالحرج والخوف من انقضاض الناس عليهم، لأنهم رقيق، إذ كان يأتي الرقيق في الدرجة الاجتماعية الدنيا، ولكن بعد انقضى المغول على الدولة العباسية سنة (1258م) وانكسارهم فيما بعد أمام المماليك سنة 1260م في معركة عين جالوت بفلسطين أضحى المماليك حماة السلم، وقد زاد نفوذهم وهيبتهم عقب قضائهم على الصليبيين سنة 1291 م وأصبحوا بذلك القوة الرئيسة السلمية في الشرق، فتبدلت المواقف وشعر المماليك بالعز والسلطة، ونظر المماليك إلى السكان نظرة تعال واحتقار وتسلطوا عليهم وكرهوا الاختلاط بهم.[5]

استطاعت طبقة المماليك الحفاظ على ذاتها والتكاثر طبقاً للمبادئ التالية: يعتبر مملوكاً كل من لم يكن مسلماً وقد ولد في بلد غير إسلامي (دار الحرب) ثم خدم أحد المماليك سواء كان سلطاناً أو أميراً، ثم قام الأمير بتنشئته وتربيته إسلاميا وقام بعد ذلك بإعتاقه، وقد اعتبر الإخلاص للسيد الجديد وللأصدقاء الذين يعملون في خدمة هذا السيد بمثابة الثوابت التي تميز تصرف المماليك.[6]

لقد تعرض نظام المماليك للخطر بعد القرن الخامس عشر الميلادي بسبب صعوبة استقدام مماليك جدد من خارج الحدود، كذلك أدى احتجاز المماليك في ثكنات خاصة، ومنعهم من الاختلاط بالسكان المحليين إلى عدم تأقلم نظام المماليك مع الأوضاع السائدة، والواقع أن أزمة الحكم كانت متوقعة، إذ قضى نظام المماليك أن لايعتبر الأبناء المنحدرون من المماليك مماليك إلا إذا قرر السلطان ذلك، ففي الفترة الأولى من حكم المماليك (1250 – 1380) لم يتمكن أبناء السلاطين من البقاء على رأس السلطة إلا بصورة متقطعة ومؤقتة، وقد تمكن السلطان قلاوون الذي حكم فترة طويلة امتدت من عام 1279 إلى عام 1290 من إرساء سلالة حاكمة ولكنها محدودة إلى حد ما، حيث اضطر ابنه الناصر محمد للتخلي عن العرش أكثر من مرة.[7]

بالرغم من الانجازات الكثيرة التي حققها المماليك الذين انحدروا من أصول وانتماءات متعددة، فقد فطروا بوجه عام على الخيانة والخديعة وانتهاز الفرص، فالإعداد الجيد والتربية الصحيحة لم يجديا أمام مغريات الأنانية الشخصية التي لزمت المماليك في أواخر العهد الأيوبي وطيلة العهد المملوكي.[8]

تقسم دولة المماليك إلى مرحلتين، المرحلة الأولى عرفت بدولة المماليك البحرية أو الصالحية، وقد بلغ عدد سلاطينها أربعة وعشرين سلطاناً، معظمهم من الأتراك، ويعود الفضل الأساسي في تكوين دولة المماليك البحرية الأولى إلى السلطان الأيوبي الصالح نجم الدين أيوب الذي أنشأ فرقة كبيرة متكاملة منهم لحاجته إلى جيش قوي يؤازره في صراعه مع باقي أفراد البيت الأيوبي من ناحية، ومع الصليبيين من ناحية أخرى، فضلاً عن عزمه وضع حد لباقي فرق المماليك الذين غدروا به، لقد عمد هذا السلطان إلى إعداد تلك الفرقة إعداداً عسكرياً رفيع المستوى، وعمل على تربية أفرادها بحيث يقوموا على خدمته وتحقيق أهدافه، وأسكنهم في مكان خاص بهم في جزيرة الروضة على النيل جانب القاهرة، لذلك عرفوا بالبحرية، وبعض الباحثين يعزون هذه التسمية الى أن هؤلاء المماليك كانوا ينقلون للمنطقة من وراء البحر، والبعض الآخر يعتقد أن هذا ارتبط بالقلعة المبنية على جزيرة الروضة في النيل، حيث كان أغلب المماليك يتمركزون.[9]

لقد استكثر هذا السلطان من المماليك وأباح لهم الاعتداء على الناس وعلى أموالهم الأمر الذي كاد أن يؤدي إلى الثورة، فاضطر الصالح إلى بناء قلعة خاصة بهم وسط جزيرة

الروضة فأسكنهم فيها واتخذها مقراً لملكه، من هنا عرف أوائل المماليك باسم المماليك البحرية أو الصالحية.[10]

في أواسط القرن الرابع عشر ميلادي ظهرت إلى الوجود الدولة المملوكية الثانية المماليك الشراكسة (البرجية)، التي تعتبر استمرارا للأولى، وقد تميزت هذه الدولة عن سابقتها بتبدل العرق الحاكم من الأتراك إلى الشراكسة الذي نكانوا أصلاً من حراس السلطان قلاوون، حيث اقتصرت هذه الدولة على سلاطين شركس فقط ماعدا اثنان منهم يرجع أصلهما إلى أصول يونانية وهما خشقدم وتمربغا، كما أن المبدأ الوراثي الذي حاول سلاطين المماليك البحرية تثبيته في البيت القلاووني لا نجد له أي أثر عند البرجية، وقد سموا بالبرجية لأنهم كانوا يقيمون في أبراج قلعة القاهرة، وبلغ عدد أفراد هؤلاء زمن السلطان قلاوون ثلاثة ألاف مملوك، وأضاف إليهم الأشرف خليل ألفين، وازداد نفوذ هؤلاء المماليك بازدياد نفوذ أبناء قلاوون، وبالتالي ازداد العداء بينهم وبين المماليك البحرية.[11]

ثانياً: حياةالظاهر بيبرس ونشأته:

وردت سيرة السلطان الظاهر بيبرس، في العديد من المصادر التاريخية الإسلامية، ومنها على سبيل المثال، "المختصر في أخبار البشر" لأبي الفداء عماد الدين اسماعيل، و"مرآة الجنان وعبرة اليقظان" لليافعي، و"البداية والنهاية" لابن كثير الدمشقي، هذا بالإضافة إلى مجموعة من مؤلفات تقي الدين المقريزي.

وهناك الكثير من الخلافات تحوم حول أصول بيبرس العرقية، فبينما تذهب العديد من المصادر إلى أن أصله تركي، فإن آراء أخرى تقول بانتسابه إلى الشركس، وعلى الرغم من شهرة بيبرس وكثرة ما كُتب عنه قديماً وحديثاً، إلا أن الفترة المبكرة من حياته محاطة بهالة ضبابية، إذ لم يُعرف على وجه التحقيق كيف وقع في الرق، وكيف وصل إلى بلاد الشام قادماً من بلاده البعيدة.

تتحدث المصادر عن تتلمذ بيبرس على يد الأمير "علاء الدين أيدكين البندقداري"، والذي نُسب إليه بيبرس، فعُرف بلقبه فيما بعد، ومن خلاله انضمّ بيبرس إلى جيش الملك الصالح نجم الدين أيوب، إذ تمكن بسرعة من إثبات جدارته، حتى أضحى واحداً من كبار قادة الجيش الأيوبي.

في النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ذكر ابن تعزي: "السلطان الملك القاهر ثم الظاهر ركن الدين أبو الفتوح بيبرس بن عبد الله البندقداري الصالحي النجمي الأيوبي التركي، سلطان الديار المصرية والبلاد الشامية والأقطار الحجازية وهو الرابع من ملوك الترك، مولده في حدود العشرين وستمائة بصحراء القبجاق تخميناً، والقبجاق قبيلة عظيمة في الترك، وهو بكسر القاف وسكون الباء ثانية الحروف وسكون الياء المثناة من تحتها ثم فتح الباء الموحدة وسكون الراء والسين المهملتين".[12]

كان بيبرس تركي الجنس، فاشتراه الملك الصالح نجم الدين أيوب، وترقى في خدمته واستفاد من أخلاقه، فلما مات الملك الصالح قام بيبرس في خدمة ابنه الملك المعظم تورانشاه إلى أن قتل، فلم يزل يرتقي إلى أن قتل الفارس أقطاي، فخرج من القاهرة وتنقل في بلاد الشام، ثم عاد إلى مصر.[13]

وقد ذكر المؤرخ الإسلامي تقي الدين المقريزي أن الظاهر بيبرس وصل إلى حماه في القرن الثالث عشر الميلادي مع تاجرٍ للرقيق، وتم بيعه إلى الحاكم المنصور محمد، لكنه رفضه وأعاده إلى التاجر، وأكمل بيبرس مع التاجر حتى وصل إلى دمشق وباعه مجدداً بثمانمائة درهم، لكن الشخص الذي اشتراه أعاده إلى التاجر بسبب عيبٍ خلقيٍّ في إحدى عينيه، فاشتراه أمير دمشق علاء الدين البندقداري.

وحينما صودرت ممتلكات علاء الدين البندقداري نتيجةً لتمرده على الملك الصالح أيوب، كان من بينها بيبرس الذي انتقل إلى خدمة السلطان الصالح نجم الدين أيوب في القاهرة، فقام بإرساله مع بقية العبيد إلى جزيرةٍ لتدريبهم وتأهيلهم. أُعجب السلطان الأيوب بالظاهر بيبرس؛ فأعتقه وعيّنه قائد الحرس الشخصي له، ورأى فيه شاباً حكيماً؛ ومنحه لقب الإمارة، فأصبح بذلك أميراً.[14]

أشار كاتب سيرة الظاهر بيبرس عز الدين إبراهيم ابن شداد في كتابه (تاريخ الملك الظاهر) أن السيرة لم تصل كاملة، بل فقد الجزء الأول منها المتعلق بنشأته ووالديه، ولم نحظ إلا بالجزء الثاني المتعلق بإنجازاته والحروب التي خاضها ووفاته.[15]

ثم آلت ملكيته للسلطان الصالح نجم الدين أيوب، حيث أظهر بيبرس في خدمته همة وشجاعة ميزته بين أقرانه، ليضمه السلطان الصالح إلى قوات الأمير "فارس الدين أقطاي" حتى أصبح من كبار القادة المماليك، وعندما وصل (لويس التاسع) بحملته الصليبية إلى

مصر كان بيبرس من الذين تصدوا له في معركة المنصورة عام 647هـ/ 1249م، فأسر لويس التاسع وانهارت حملته.

عقب اغتيال أقطاي وتولي السلطان عز الدين أيبك حكم مصر اضطر بيبرس إلى الانتقال إلى الشام، إذ لم تكن العلاقة بين أيبك وأقطاي على ما يرام، وبعد أن تولي الأمير قطز مقاليد الأمور في مصر، قام باستدعاء بيبرس من الشام لمعاونته في إيقاف زحف التتار على الشرق، فتمكنا معاً من سحق التتار في معركة "عين جالوت"، وعهد قطز إلى بيبرس بمهمة ملاحقة فلول التتار وتشتيتهم، في عام 658هـ/ 1260م، تولى بيبرس حكم مصر عقب مقتل قطز.

اتصف بيبرس بالحزم، والبأس الشديد، وعلو الهمة، وبعد النظر، وحسن التدبير، واجتمعت فيه صفات العدل والفروسية والإقدام، فلم يكد يستقر في الحكم حتى اتخذ عدة إجراءات تهدف إلى تثبيت أقدامه في الحكم منها: التقرب من الخاصة والعامة؛ بتخفيف الضرائب عن السكان، كما عفا عن السجناء السياسيين، وأفرج عنهم، كما عمل على الانفتاح على العالم الإسلامي لكسب ود زعمائه[16]

يعتبر الظاهر بيبرس المؤسس الحقيقي لدولة المماليك الأولى، وقد تولى السلطنة في 19 ذي القعدة 658هـ، والظاهر لقبه، ولقب أيضاً بالبندقداري نسبة إلى سيده علاء الدين البندقدار، وأول عمل قام به كان إعادة جميع المماليك البحرية المشردين خارج مصر.[17]

ثالثاً- دور الظاهر بيبرس في موقعة عين جالوت:

تعد معركة عين جالوت من أهم المعارك في التاريخ الإسلامي والتي كان لها دور أساسي في حماية المسلمين، والحفاظ على وجود الإسلام، حبق أن هذه المعركة تعد من المعارك المفصلية في التاريخ الإسلامي والتي وقعت عام 1260، والتي من خلالها تم القضاء على أسطورة جيش التتار الذي عاث في الأرض فساداً، وقتل من المسلمين ومن غير المسلمين ما قتل، وكان من العوامل الهامة في النصر في معركة عين جالوت وجود الظاهر بيبرس مهندس المعركة إلى جانب الملك المظفر سيف الدين قطز.

تقدم الملك المظفر سيف الدين قطز لسائر الولاة بإزعاج الأجناد في الخروج للسفر، ومن وُجد منهم قد اختفى يضرب بالمقارع*، وسار حتى نزل بالصالحية وتكامل عنده العسكر، فطلب الأمراء وتكلم معهم في الرحيل، فأبوا كلهم عليه وامتنعوا من الرحيل، فقال لهم: "يا أمراء المسلمين، لكم زمان تأكلون أموال بيت المال، وأنتم للغزاة كارهون، وأنا متوجه فمن اختار الجهاد يصحبني، ومن لم يختر ذلك يرجع إلى بيته، فإن الله مطلع عليه، وخطيئة حريم المسلمين في رقاب المتأخرين"، فتكلم الأمراء الذين تخيرهم وحلفهم في موافقته على المسير، فلم يسع البقية إلا الموافقة، وانفض الجمع.[18]

في أغسطس سنة 1260م/ رمضان سنة 685هـ، خرج قطز من مصر على رأس الجيوش المصرية ومن انضم إليه من الجنود الشامية وغيرهم، حيث حط الجيش رحاله في مكانين استكمالاً للاستعداد، أولهما "الريدانية" وثانيهما "الصالحية" في الطريق إلى المشرق، وكان في صحبة قطز بهذه المسيرة "الملك المنصور" صاحب "حماة" الذي لجأ بجنده إلى مصر، وها هو يعود مع الجيش الزاحف للقاء التتار، وكذلك أخوه "الأفضل علي"،[19] أما الأمير بيبرس البندقداري فقد تقدم بقطعة من العسكر ليكشف أخبار التتار، فسار حتى لقي المغول عند غزة، وتمكن بيبرس من أن يلحق بطلائع المغول هزيمة كانت الأولى في تاريخ المغول غير أنها لم تكن حاسمة، وأخذ بيبرس يناوش العدو ويراوغه ليخفي عنه تحركات الجيش الرئيسي بقيادة قطز، ثم تقدم قطز عن طريق الساحل، فعرج أولاً نحو عكا لكي يتبين نيات الفرنج الذين ارتبطوا مع الناصر سلطان حلب ودمشق بمعاهدة منذ 21 فبراير سنة 1254م، 679هـ، وتستمر عشرة أعوام، وقد اندمجت مصر في تلك المعاهدة بعد عقدها في سنة 1256م، 681هـ، ويقول بعض المؤرخين في ذلك الصدد أن الفرنج عرضوا وقتذاك على قطز أن يمدوه بقوات من عندهم، ولكنه اكتفى بأن طلب منهم التزام الحيدة التامة وإلا قاتلهم قبل أن يلقي التتار،[20] ثم وافى قطز الأمير بيبرس عند عين جالوت.

ومع شروق يوم الجمعة الخامس والعشرون من رمضان سنة 658 هجرية أضاءت الدنيا ورأى المسلمون من بعيد جيش التتار، حيث أتى الجيش التتري المهول من اتجاه الشمال، وبدا في الاقتراب من سهل عين جالوت، وعلى أبواب السهل وقف الجيش التتري في عدده

*مفردها مقرعة: وهي خشبة يضرب بها، أنظر عبد الله الشيباني الوافي، المعجم الوسيط، مكتبة لبنان، بيروت، 1980م، 735/2.

الرهيب وعدته القوية، لم يكن بالسهل أحد من المسلمين، فقد كانوا يقفون جميعاً خلف التلال، وكانت مقدمة الجيش بقيادة ركن الدين بيبرس لا تخفي نفسها، وذلك حتى يعتقد جواسيس التتار أن هذه المقدمة هي كل الجيش، ومع ذلك فعند قدوم جيش التتار كانت هذه المقدمة مختفية هي الأخرى، ثم أشار لها قطز أن تنزل من فوق التلال للوقوف على باب السهل، لقتال الجيش التتري.[21]

وبدأت القوات الإسلامية تنزل من فوق التل إلى داخل سهل عين جالوت، ثم تتجه إلى شمال السهل للاقتراب من جيش التتار، ولم تنزل مقدمة الجيش دفعة واحدة، إنما نزلت على مراحل، وكانت كل هذه الفرق هي مقدمة الجيش فقط، وهي أقل بكثير من جيش التتار الرهيب، فقد احتفظ قطز بقواته الرئيسية خلف التلال، وقد قرر ألا تشترك في المعركة إلا بعد أن تنهك قوات التتار، وبعد أن نزلت مقدمة المسلمين بقيادة ركن الدين بيبرس، بدأت الموسيقى العسكرية الإسلامية المملوكية تظهر على الساحة، وانطلقت في قوة تدق طبولها، وتنفخ في أبواقها، وتضرب صنوجها النحاسية، حيث كانت الجيوش المملوكية تتلقى الأوامر عن طريق هذه الدقات التي لا يعرفها الأعداء، فكانت هناك ضربات معينة للميمنة، وضربات معينة للميسرة، وضربات معينة للقلب، وكانت هناك ضربات للتقدم وضربات للانسحاب، وكانت هناك ضربات خاصة لكل خطة عسكرية، وبذلك يستطيع القائد قطز أن يقود المعركة عن بعد، من خلال دقات هذه الآلات الضخمة.[22]

وقف الأمير ركن الدين بيبرس بقواته على المدخل الشمالي لسهل عين جالوت، بينما ترك السهل بكامله خالياً من خلفه، ونظر كتبغا إلى مقدمة القوات الإسلامية وكان لا يدرك شيئاً عن القوات الرئيسية المختبئة خلف التلال، فوجد أن القوات الظاهرة أمامه قليلة جداً بالنسبة لقواته، فأراد كتبغا أن يحسم المعركة لصالحه من أولى لحظاتها، لذلك قرر أن يدخل بكامل جيشه وقواته لحرب مقدمة المسلمين، حيث هذا ما كان يريده الملك المظفر قطز، وأعطى كتبغا قائد التتار إشارة البدء لقواته، وانهمرت جموع التتار وهي تصيح صيحاتها المفزعة على مقدمة المسلمين، أما القائد المحنك ركن الدين بيبرس، فقد كان يقف في رباطة جأش عجيبة، ومعه الأبطال المسلمون يقفون في ثبات، حتى إذا اقتربت جموع التتار، أعطى بيبرس إشارة البدء لرجاله، فانطلقوا في شجاعة نادرة في اتجاه جيش التتار، وارتفعت سحب الغبار في ساحة المعركة، وتعالت أصوات الطبول وأصوات الآلات المملوكية، وعلت

صيحات التكبير من الفلاحين الواقفين على جنبات السهل، امتزجت قوات المسلمين بقوات التتار، واحتدمت المعركة في لحظات، وكانت فرقة ركن الدين بيبرس من أفضل فرق المسلمين، وقد اختارها قطز لتكون قادرة على تحمل الصدمة التترية الأولى، وثبتت القوات الإسلامية ثباتاً رائعاً مع قلة عددها، مما دفع كتبغا إلى استخدام كل طاقته دون أن يترك أي قوات خلف الجيش التتري، وكان هذا هو الجزء الأول من الخطة الإسلامية: استنزاف القوات التترية في حرب متعبة، والتأثير على نفسياتهم عند مشاهدة ثبات المسلمين وقوة بأسهم، وبدأ تنفيذ الجزء الثاني من الخطة الإسلامية، حيث دقت الطبول دقات معينة لتصل الأوامر من قطز إلى بيبرس ليبدأ في تنفيذ الجزء الثاني من الخطة، حيث كان الجزء الثاني من الخطة عبارة عن محاولة سحب جيش التتار إلى داخل سهل عين جالوت، وحبذا لو سُحب الجيش بكامله، بحيث ادخل قوات التتار في الكمائن الإسلامية تمهيداً لحصارها، وبدأ ركن الدين بيبرس في تنفيذ هذا الجزء من الخطة على صعوبته، فكان عليه أن يظهر الانهزام أما التتار، ويتراجع بظهره وهو يقاتل، على ألا يكون هذا التراجع سريعاً جداً حتى لا يلفت أنظار التتار إلى الخطة، ولا بطيئاً جداً فتهلك القوة الإسلامية أثناء التراجع، وبدأ ركن الدين بيبرس في الانسحاب التدريجي، وكلما رجع خطوة تقدم الجيش التتري مكانه، وتحمس كتبغا ومن معه للضغط على المسلمين، وبدؤوا يدخلون السهل وهم يضغطون على المسلمين، ومر الوقت ببطء على الطرفين، ولكن في النهاية دخل جيش التتار بكامله إلى داخل سهل عين جالوت وانسحب ركن الدين بيبرس بمقدمة الجيش إلى الناحية الجنوبية من سهل عين جالوت، وفي غضون حماسة كتبغا للقضاء على جيش المسلمين لم يترك أياً من قواته الاحتياطية خارج السهل بل أخذ معه كل جنوده، وبذلك نجح الجزء الثاني من الخطة الإسلامية، وبدأ تنفيذ الجزء الثالث، حيث جاءت إشارة بدء الجزء الثالث من الخطة من قطز عن طريق الطبول والأبواق، والتي تمثلت (أي الخطة) في نزول الكتائب الإسلامية من خلف التلال إلى ساحة المعركة، نزلت من كل جانب، وأسرعت فرقة قوية لتغلق المدخل الشمالي لسهل عين جالوت، وبذلك دقائق معدودات أحاطت القوات الإسلامية بالتتار إحاطة السوار بالمعصم. (23)

رابعاً- وصوله إلى السلطة والأحداث التي شهدتها الدولة المملوكية في عهده:

يذكر المؤرخون أنه بعد انتصار قطز على المغول في معركة عين جالوت اغتيل قطز في طريق عودته منتصراً إلى مصر، فتمت مبايعة بيبرس ونُصب سلطاناً على مصر رغم اتهامه بالضلوع في اغتيال قطز، وما أن تولى بيبرس حكم مصر قام بالقضاء على الحركات المناهضة لحكمه، وأعاد الأمن والسكينة إلى البلاد، ففي الشام كتب بيبرس إلى ملوك وأمراء الشام يخبرهم بسلطته، فأجابوه كلهم بالسمع والطاعة فيما عدا الأمير علم الدين سنجر الحلبي نائب دمشق، الذي استاء لمقتل قطز، ورفض طاعة بيبرس، ونادى بنفسه سلطاناً على دمشق، في ذي الحجة 658هـ/ نوفمبر 1260م وتلقب بالملك المجاهد، وخطب له على منابر دمشق، وأشرك الصناع وكبار رجال الدولة وكذلك النساء في عمارتها، "وجمع لها الصناع وكبراء الدولة والناس وعملوا فيها، حتى عملت النساء"[24] فلما حضر رسول الملك الظاهر بيبرس إليه، وجده قد تسلطن، فعاد إلى مصر، فكتب الظاهر بيبرس إليه يعنفه ويقبح فعله، فرد عليه سنجر الحلبي رداً قبيحاً.

لجأ بيبرس إلى الحيلة، فأرسل الأمير جمال الدين المحمدي إلى دمشق ومعه مائة ألف درهم وهدايا وخلع ليستميل بها الناس على الملك المجاهد سنجر، فقدم دمشق في الثالث من صفر 659هـ/ السابع من يناير سنة 1261م، فأفلحت خطة بيبرس فانفض الأمراء في دمشق عن سنجر ونادوا للملك الظاهر بيبرس، فبعث الملك المجاهد إليهم بعساكره ولكنه تعرض للهزيمة، فالتجأ إلى قلعة دمشق، في نفس الوقت الذي دخل فيه الأمير إيدكين البندقدار إلى دمشق وملكها وأقسم له الأمراء يمين الولاة، فخاف المجاهد سنجر على نفسه، ففر من قلعة دمشق إلى بعلبك، ولكن قوة من العسكر قبضت عليه وأحضرته إلى القاهرة، فاعتقله بيبرس بالقلعة إلى أن أفرج عنه بعد ذلك وقلده نيابة حلب.[25]

ولم تكن ثورة الأمير سنجر هي الوحيدة التي اعترضت بيبرس في أوائل حكمه، وإنما حدث أن ثار الأمير شمس الدين أقوش البرلي، وكان السلطان بيبرس قد كلف نائبه بدمشق – الأمير علاء الدين البندقدار – بالقبض على بعض الأمراء الذين توهم منافستهم له مثل الأمير شمس الدين أقوش البرلي، ولكن البرلي استطاع الفرار ومعه بعض المماليك العزيزية والناصرية، فاتجهوا شمالاً وحاولوا استمالة صاحبي حمص وحماة إلى جانبهم، فلما فشلوا في ذلك انقضوا على حلب واستولى عليها البرلي ورفاقه، وعندما علم السلطان بيبرس بما فعله

البرلي في حلب غضب وأرسل ضده جيشاً بقيادة الأمير جمال الدين المحمدي، ليسترد المدينة من البرلي، ونجحت قوات الظاهر بيبرس في الاستيلاء على حلب وفر البرلي إلى البيرة على الفرات حيث أعلن ندمه وتوبته، وأرسل إلى السلطان بيبرس يطلب عفوه، فعفا عنه وأكرمه عند قدومه إلى مصر.[26]

وكان المغيث عمر العادل بن الكامل صاحب الكرك، يسعى لإعادة الدولة الأيوبية تحت زعامته، كما كان بيبرس على إطلاع تام بما يطمح إليه المغيث، خاصة وأن المماليك البحرية ومنهم بيبرس كانوا قد لجأوا إليه فراراً من أيبك ثم من قطز، لذلك استدرج المغيث إلى معسكره في بيسان وأمر باعتقاله في جمادي الأولى سنة 661هـ، وأحسن بيبرس في طريقة التخلص من أحد الورثة الشرعيين للعرش الأيوبي، حتى لا يثير النفوس ضده، فألصق بالمغيث تهمة الاتصال بالمغول لمساعدته في إعادة الدولة الأيوبية إلى الشام ومصر، وأمر بقتله في القاهرة في جمادي الثاني سنة 661هـ، وبذلك سيطر بيبرس على الكرك وعيّن عليها والياً من قِبله.[27]

أخذ الظاهر بيبرس يستميل عامة الناس في مصر بتخفيف عبء الضرائب عنهم لاسيما أن قطز كان قد استحدث كثيراً من الضرائب والمكوس ليستعين بحصيلتها على حرب المغول، فلما وُلي بيبرس أبطل جميع تلك الضرائب التي استحدثها قطز، وكتب منشوراً بذلك قرأ على منابر المساجد، فسر الناس بذلك.[28]

فقد قضي بيبرس السنوات الخمس الأولى من حكمه يعمل على توطيد دعائم دولته في مصر والشام، وذلك قبل مواجهة الخطرين اللذين يهددان المشرق العربي الإسلامي وهما: الخطر الصليبي، والخطر المغولي.

ويعتبر بيبرس من أعظم سلاطين المماليك لما قام به من أعمال شملت تنظيمات وعمران وغير ذلك، وكان من أهم أعمال بيبرس إلى جانب إحياؤه الخلافة العباسية في القاهرة سنة 659هـ / 1260م، بعد أن قضي عليها التتار في بغداد، مما أكسبه سلطة شرعية مدعومة بموافقة الخليفة العباسي، أنه استن نظام ولاية العهد في أسرته، بتعيين ابنيه السعيد بركه خان والعادل بدر الدين سلامش، وحفر الترع، وأصلح الحصون، وأسسِ المعاهد، وبني المساجد، كما قوى الجيش واستحضر أعداداً كبيرة من المماليك، وكرس همته في محاربة الصليبيين، ولذلك يعتبر المؤسس الحقيقي للدولة المملوكية في مصر.[29]

ولم يقتصر بيبرس على ذلك بل أخذ في بناء المساجد وتأسيس المدارس، ففي ربيع الآخر سنة 660هـ/ 1261م بدأ في بناء مدرسته المشهورة على أنقاض إحدى قاعات القصر الكبير الفاطمي، وتم بناء هذه المدرسة سنة 662هـ/ 1263م، كما تقرب بيبرس إلى العلماء ورجال الدين، ويؤثر عنه أنه زار الإسكندرية أربع مرات، وأنه كان يترك بها في كل زيارة أثراً يدل على اهتمامه بها مثل تحصين أسوارها، وتقوية أسطولها، وتطهير خليجها من الرمال التي طمرته، وزيارة كبار المتصوفة من علمائها أمثال الشيخ القباري، والشيخ الشاطبي، وبتلك الوسائل وغيرها تزعم بيبرس العالم الإسلامي شرعاً وعرفاً، وقدم ملوك المسلمين إلى القاهرة ودمشق للقيام بخدمته وتقديم فروض الطاعة والتبعية لشخصه، مما ضمن قيام دولة المماليك على أسس ثابتة.[30]

وقد دعم الملك الظاهر بيبرس دولته بشكل قوي ورسخ أركانها، ففي عام 667 حج الظاهر بيبرس، وأزال أنصار الحفصيين في مكة، وبسط نفوذه في الحجاز، وتقرب من العلماء، وبني المدارس والمكتبات، وتزعم العالم الإسلامي،[31] كما انتهز الفرصة لكي يجعل الخطبة في الحجاز للخليفة العباسي ثم سلطان مصر من بعده، وهكذا ازداد البعد الديني وضوحاً في دولة سلاطين المماليك، ومن ناحية أخرى قام بيبرس بترميم قبة الصخرة والمسجد الأقصى، كما جدد بناء مسجد الخليل عليه السلام،[32] ولتدعيم قوته العسكرية، أخذ الظاهر بيبرس يعمل على تكوين جيش من المماليك، فأكثر من استقدام أعداد كبيرة منهم، وفي سنة 660هـ/ 1262م، عقد محالفة مع الإمبراطور البيزنطي ميخائيل الثامن، كما تحالف مع بركان خان زعيم مغول القبجاق، وعز الدين كيكاوس سلطان سلاجقة الروم في آسيا الصغرى، ثم شرع في عملية جلب المماليك، فكان يرسل سفينتين كل عام، فيسهل الإمبراطور البيزنطي مرورهما على البسفور نحو البحر الأسود، حيث تنقل المماليك المجلوبين من القبجاق لتعود بهم إلى الإسكندرية ودمياط في البحر المتوسط.

وعمل بيبرس على إنشاء قوة بحرية يستعين بها في صد أعدائه الذين يغيرون على بلاده من جهة البحر، ويعتبر بيبرس في الواقع هو مؤسس أسطول المماليك، إذ يشير المقريزي إلى كثرة ركوب هذا السلطان في بحر النيل، وإلى اهتمامه بدور صناعة السفن التي في الفسطاط (مصر) وجزيرة الروضة، والإسكندرية، ودمياط، لدرجة أنه كان يشرف بنفسه على

بناء الشواني*،وتجهيزها بالآلات، ولعبها في البحر، ويسوق المقريزي في هذا الصدد رواية طريفة تدل على مبلغ عناية بيبرس بالأسطول، وهي أن رسل ملك قبرص جاءت إلى السلطان بيبرس سنة 670هـ للشفاعة في صاحب عكا، فوجدته جالساً في الصناعة بين الأخشاب، والصناع والأمراء تحمل بأنفسها آلات الشواني وهي تمد، فراعهم ما شاهدوا.(33)

ورغم اتهام الدولة المملوكية كثيراً بالضعف الحضاري، والهزال العلمي الفكري، ولكن التاريخ الصحيح يُكذِّب ذلك؛ فقد كان لفنون الحضارة مكان عزيز عند المماليك، حيث حرص سلاطين المماليك على تطوير الجهازين الإداري والعسكري، فاستحدث الظاهر بيبرس بعض الوظائف الإدارية؛ لأن الوظائف التي عرفها المماليك وأخذوها عن الأيوبيين أصبحت لا تفي بحاجة الدولة الآخذة في التطور والتوسع، فأنشأ وظائف جديدة لم تكن معروفة في مصر من قبل يشغلها أمراء يعينهم السلطان من بين الأشخاص الذين يثق بهم، كما تم تعديل نظام القضاء، حيثكان يتولى منصب القضاء في عهد الأيوبيين في القاهرة وسائر أعمال الديار المصرية، قاض واحد على المذهب الشافعي وله حق تعيين نواب عنه في الأقاليم، وأحياناً كان يعين قاض للقاهرة والوجه البحري، وظل الوضع على ذلك حتى عام(660هـ/ 1262م)، ومازال السلطان يطور النظام القضائي حتى ثبته وجعله مبدأ رسمياً في (شهر ذي الحجة عام 663هـ)، فعين أربعة قضاة يمثلون المذاهب الأربعة، وسمح لهم أن يعينوا نواباً عنهم في الديار المصرية، فكان القاضي ابن بنت الأعز يمثل المذهب الشافعي، والقاضي صدر الدين سليمان يمثل المذهب الحنفي، والقاضي شرف الدين عمر السبكي يمثل المذهب المالكي، والقاضي شمس الدين القدسي يمثل قضاء الحنابلة، وفعل مثل ذلك في دمشق، وسن بيبرس عدة تشريعات لتهذيب أخلاق المصريين لعل أهمها الأمر الذي أصدره في عام (664هـ/ 1266م) ومنع بموجبه بيع الخمور، وأقفل الحانات في مصر وبلاد الشام، ونفى كثيراً من المفسدين.(34)

* الشواني جمع شيني أو شوني أو شونة، وهي من أهم القطع التي كان يتألف منها الأسطول، وهي مراكب حربية كبيرة كانوا يقيمون فيها أبراجاً وقلاعاً للدفاع والهجوم، وكانت هذه الأبراج مكونة من عدة طبقات، تقف في الطبقة العليا منها العساكر المسلحة بالقوس والسهام، وفي الطبقة السفلى الملاحون بالمجاذيف، وتحتوي على مخازن لخزن الطعام، ومستودعات لخزن المياه.

أما منشآته العمرانية فكانت كالآتي:

- جدد بناء الحرم النبوي.
- جدد بناء قبة الصخرة في القدس، بعد أن تداعت أركانها.
- أعاد الضياع الخاصة بوقف الخليل في فلسطين، بعد أن دخلت في الإقطاع، ووقف عليه قرية اسمها بإذنا.
- بني المدرسة الظاهرية بين القصرين، وعين فيها كبار الأساتذة كان من بينهم مدرس الحنفية الصاحب مجد الدين بن العديم، ومدرس الشافعية الشيخ تقي الدين بن رزين، وولى الحافظ شرف الدين عبد المؤمن الدمياطي مشيخة الحديث، والشيخ كمال الدين الحلبي مشيخة القرَّاء.
- بنى مسجده المعروف باسمه في ميدان الظاهر في القاهرة.
- بنى مشهد النصر في عين جالوت تخليدًا لذكرى الانتصار على المغول.
- جدد أسوار الإسكندرية.
- أعاد بناء القلاع التي هدمها المغول في بلاد الشام مثل قلعة دمشق، قلعة الصلت، قلعة عجلون وغيرها.[35]

خامساً- إحياء الخلافة العباسية في القاهرة:

ثمة عمل هام قام به الظاهر بيبرس، فكان له أبلغ الأثر والنتائج بالنسبة للتاريخ الإسلامي عامة وتاريخ مصر خاصة، ثم بالنسبة لتاريخ دولة المماليك وعهد الظاهر بيبرس على وجه التحديد، ونعني بهذا المشروع إحياء الخلافة العباسية في مصر، حيث أنه مهما قيل من أن بعض الحكام المسلمين في بلاد الشام ومصر قد فكروا في إحياء الخلافة العباسية قبل بيبرس، فإن هذه المشروعات لم تتحقق فضلاً عن أن أحدها لم يتجه نحو التفكير في إحياء الخلافة العباسية في القاهرة بالذات، مما ضمن للظاهر بيبرس في التاريخ فخر تنفيذ الفكرة عملياً من ناحية وفخر ربط الخلافة العباسية في ذلك الدور الجديد من أدوار تاريخها بمصر والقاهرة من ناحية أخرى، ذلك أن الأمير علاء الدين البندقدار نائب السلطان الظاهر في دمشق كتب إليه يخبره بأن أحد بني العباس – وهو الأمير أبوالقاسم أحمد ابن الخليفة الظاهر أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أحمد بن المستضيء لدين الله العباسي – وصل إلى دمشق ومعه جماعة من عرب بني مهنا يشهدون على صحة

نسبه، وأنه يريد أن يلحق بالسلطان الظاهر بيبرس بالقاهرة، وكان أن وجد بيبرس فرصته في مجيء ذلك الأمير، فرد على الأمير البندقدار يأمره "بالقيام في خدمته وتعظيم حرمته" كما أمره أن يرسله ومن معه إلى مصر، وهكذا غادر الأمير العباسي دمشق، فسار بأوفر عربة إلى جهة مصر، وفي القاهرة استقبل الأمير أحمد استقبالاً حافلاً، فخرج السلطان إلى لقائه ومعه الوزير وقاضي القضاة وجمهور كبير من أعيان القاهرة وأهلها، كما خرجت اليهود بالتوراة والنصارى بالإنجيل لاستقباله، وكان يوم دخوله القاهرة من الأيام المشهودة، إذ سار في شوارع القاهرة وقد لبس الشعار العباسي، حتى صعد قلعة الجبل وهو راكب، فأنزله السلطان في مكان جليل قد هيئ له بها، وبالغ في إكرامه وإقامة ناموسه.[36]

هكذا نالت دولة سلاطين المماليك البعد الديني الذي يؤكد شرعيتها في عيون المعاصرين، لقد كان البعد العسكري هو الذي أفرز هذه الدولة باعتبارها القوة القادرة على حماية العالم الإسلامي، بيد أن هذا البعد لم يكن كافياً وحده، بدليل المصاعب التي واجهت المماليك منذ "شجرة الدر" وحتى بيبرس من جانب الرعايا والقوى السياسية الأخرى.[37]

سادساً- أهم أعماله:

- **جهوده ضد الصليبيين:**

عندما توطدت دعائم سلطة المماليك، وقويت شوكتهم، نتيجة الإجراءات التي اتخذها "بيبرس"، حيث رأى هذا السلطان ضرورة متابعة سياسة صلاح الدين الأيوبي وخلفائه في طرد الصليبيين، وإجلائهم عن البلاد الإسلامية، ولم يكن ذلك بالأمر السهل، فقد كان لزاماً عليه أن يجابه ما تبقى من الإمارات الصليبية وهي أنطاكية، وطرابلس، والجزء الباقي من مملكة بيت المقدس، وحتى يحقق هدفه اتبع إستراتيجية عسكرية قائمة على ضرب هذه الإمارات الواحدة تلو الأخرى، ولم تنقضِ سنة من السنوات العشر الواقعة بين عامي (659-669هـ/ 1261- 1271م) دون أن يوجه إليهم حملة صغيرة أو كبيرة، وكان ينتصر عليهم في كل مرة.[38]

وإذا كان الصليبيون قد خف أثرهم، ولم يعد بإمكانهم إرسال حملات جديدة إلى ديار المسلمين لأنهم يئسوا من إحراز النصر، وانقطع أملهم في تحقيق أي هدف لهم بعد أن وجدوا كلمة المسلمين تميل إلى الوحدة، ولم يكن لدعم النصارى في المشرق، والذين يعيشون في كنف المسلمين منذ مدة ليست قصيرة، كبير فائدة، غير أن الظاهر بيبرس كان يخالفهم

لوجودهم في بلاد المسلمين، ولم يأمن مكرهم في أي وقت من الأوقات، كما لم يأمن مكر التتار الذين خفت هجمتهم الشرسة عما كانت عليه أيام جنكيز خان وهولاكو، غير أن شرهم لا يزال قريباً، ومتوقعاً في كل وقت، لذا فقد عمل السلطان الظاهر بيبرس مع الجهات الثانية وإن كانت ذات ضرر لكنه أقل من شر التتار والصليبيين، لقد تحالف مع إمبراطور الدولة البيزنطية ميخائيل الثامن باليولوج، وأرسل له وفداً وهدايا وذلك عام 660، كما حالف إمبراطور الدولة الرومانية الغربية، وملك صقلية ونابولي منفر بن فريدريك الثاني، وهو هنشتافن، وكانت لا تزال في صقلية آنذاك بعض المدن الإسلامية، وتشير المراجع أيضاً إلى تبادل الهدايا بين مانفرد وبيبرس، فأرسل هذا الأخير في عام 660هـ/ 1261م ، وفداً برئاسة المؤرخ جمال الدين بن واصل إلى ملك صقلية، وحمله هدية جليلة منها بعض الزرافات، وبعض أسرى عين جالوت من المغول، وقد رد مانفرد بسفارة مشابهة تحمل الهدايا للسلطان، ويبدو من هذه التحالفات أن القصد منها عدم دعم الصليبيين وعدم العمل لإرسال حملات صليبية جديدة.[39]

ولم ينس بيبرس لحظة عداوة الصليبيين وخطرهم على الشام ومصر، وهو الذي شارك في صدهم عن المنصورة ودمياط، ورأى محاولات لويس التاسع في تأجيج الصراع بين دولة المماليك الحديثة النشأة والملك الناصر ملك الشام، ثم تعاونهم مع الخطر الجديد القادم من الشرق، حيث رأوا فيه حليفاً طبيعياً ساقه الله لنصرتهم، ألا وهو خطر المغول، فاتصلوا بهم، وعملوا أدلاء لجيوشهم وجواسيس يطلعونهم على عورات المسلمين، بل سمح بعضهم لبعض الحاميات المغولية بالنزول في حصونهم، فوقعوا هم أنفسهم تحت سيطرة ورحمة تلك الجماعات[40] ، وكذلك تآمر الصليبيين الدائم مع الحشاشين، الذي كانوا خطراً دائماً يهدد كل مجاهد مسلم من زعماء المسلمين، لهذا قرر بيبرس كما قلده في ذلك خلفاؤه أمثال قلاوون والأشرف خليل، اجتثاث الخطر الصليبي نهائياً من بلاد الشام، حيث اتسمت سياسة الظاهر بيبرس بالعنف والصرامة إزاء الصليبيين، ومنذ سنة 658هـ/ 1261م، بدأت جهود بيبرس العسكرية ضد الصليبيين، وفي مطلع سنة 663هـ/ 1265م، دخل في عمليات حربية واسعة ضد إمارات الساحل الصليبية، فاستولى على مدينة قيسارية، ثم مدينة أرسوف إلى الجنوب منها، وفي العام التالي مباشرة أخذ قلعة صفد التي كانت معقل الفرسان الداوية، وكان يقود جيوشه بنفسه في هذه المعارك،[41] وقد استولى عليها بيبرس بعد حصار استمر

أحد عشر يوماً، وقتل جميع أفراد الحامية من فرسان الداوية، وهم الفرسان الأشداء، ليكونوا عبرة لغيرهم من الصليبيين،[42] وفي أثناء القتال ضد قيسارية أخذ يهدم أسوارها بمطرقة في يده حتى جرحت يده، وفي صفد كان يشارك البقر في جر الأخشاب اللازمة لعمل الأبراج لمهاجمة القلعة، وفي 666هـ/ 1268م استولى على يافا، ثم حصن شقيف أرنون المنيع، وكانت سياسة بيبرس تقوم على الإفادة من منازعات الصليبيين الداخلية، وبعد مناورة كبيرة قامت بها جيوش هذا السلطان الداهية فوجئ الصليبيون بالقوات المصرية والشامية تحاصر أنطاكية، ثم تستولي عليها سنة 666هـ/ 1268م، واستولى بيبرس على المدينة التي ظلت رهينة الأسر الصليبي على مدى أكثر من مائة وخمسين عاماً، وكان ذلك أكبر انتصار حققه المسلمون على الصليبيين منذ أيام حطين واسترداد بيت المقدس، وكان فرح المسلمين عظيماً بهذا الفتح.[43]

- **سقوط إمارة أنطاكية:**

بدأت الهزائم تحل بالصليبيين منذ سنة 664هـ/ 1260م، عندما أرسل بيبرس جيشاً يتقدمه الأمير جمال الدين أيدغدي العزيزي، ثم جيشاً بقيادة الأمير سيف الدين قلاون الألفي، للإغارة على مواقع الصليبيين، فاستولوا على قلاع حلب، القليعات، وعرقا، وسنة 666 /1268، سقطت يافا، بعدها اتجه بيبرس نحو الشمال، فأغار على طرابلس، ثم رحل عنها إلى حصن الأكراد، حيث حصل على مائة ألف دينار، مقابل الابتعاد عن الحصن، وتابع سيره نحو أنطاكية مروراً بحمص، حماه، أفامية، ثم حاصر أنطاكية براً وبحراً، حتى لا تصل إليها الإمدادات، ودخلها في 4 رمضان 666هـ/18 مايو 1268، بعد أن قتل فيها أكثر من أربعين ألفاً، وكانت الغنائم كثيرة من الأسرى والمال، وبعد تسعة أيام، استولى بيبرس على حصن بغراس بالأمان في 13 رمضان، وجعله حصناً للمسلمين.[44]

أضعف سقوط أنطاكية روح المقاومة ضد الصليبيين؛ لأنها كانت بحكم موقعها الجغرافي سنداً قوياً للدولة الصليبية منذ أوائل الحروب الصليبية، وتشير المراجع إلى الرسالة التي كتبها بيبرس إلى أميرها بوهمند السادس، الذي كان مقيماً وقتئذ في إمارته الثانية طرابلس في جنوب أنطاكية، وكانت هذه الرسالة مليئة بعبارات السخرية والتهكم، أما الصليبيون فقد جاءت أنباء سقوط إنطاكية عليهم بمثابة الكارثة، وانتابهم خوف شديد فسارعوا إلى تقديم فروض الطاعة والولاء للسلطان، وعندما طلب ملك عكا الصليبي معاهدة هدنة مع بيبرس

لقاء التنازل عن نصف أملاك التاج الصليبي في عكا، وافق السلطان على أساس أن هذه الهدنة تطلق يده في مواجهة القوى الصليبية الأخرى في الشام، وكانت مدة الهدنة عشر سنين وعشر أشهر وعشر ساعات من 11 رمضان سنة 670 هـ.[45]

- **محاولة فتح قبرص:**

ولم يكتف بيبرس بهذا النصر العظيم، فوجه همه نحو جزيرة قبرص ليؤدب ملكها هيو الثالث، الذي كان دائم التهديد للسفن الإسلامية في البحر الأبيض المتوسط، ودائم المساعدة للصليبين، فوجه نحوه حملة بحرية عام 668 هـ (1270م)، ولكنها فشلت بسبب العواصف التي حطمت معظم سفنها، فنجي بذلك ملكها من عقاب بيبرس[46].

لم يثن هذا الفشل في فتح قبرص، بيبرس عن مواصلة الجهاد ضد الصليبيين، فاستولى في عام (669هـ / 1270م) على صافيتا وحصن الأكراد، وحصن عكار، والقرين، ثم واصل مهاجمة إمارة طرابلس، فاستولى على ما حولها من حصون وممرات وكاد أن يفتحها، ولكنه عندما علم بخروج الحملة الصليبية الثامنة من فرنسا خشي أن تكون جهتها مصر، فسارع إليها للاستعداد لمواجهة هذا الخطر[47].

ثم أخذ بيبرس بعد ذلك في مهاجمة إمارة طرابلس سنة 669هـ / 1271م، عندما بلغه أن الأمير إدوارد الإنجليزي وصل إلى عكا على رأس بعض مئات من الفرسان بقصد الحج إلى بيت المقدس، ويبدو أن وصول ذلك الأمير أثار مخاوف بيبرس إذ خشي أن تكون تلك الحركة مقدمة لحملة صليبية كبيرة في طريقها إلى الشام، لذلك قبل بيبرس العرض الذي تقدم به بوهمند السادس صاحب طرابلس، وتم عقد الصلح بين الطرفين على أن تكون الهدنة عشر سنوات، ومن الطريف ما يحكى في هذا الصدد من أنه في أثناء المفاوضات التي دارت بين رسل بيبرس وبوهمند السادس، كان بيبرس نفسه مندساً بين أعضاء الوفد الذي يمثل بلاده، ومتنكراً في زي خادم كي تتاح له حرية التنقل بين حصون طرابلس ومعرفة مواضع القوة والضعف فيها تمهيداً لفتحها فيما بعد.[48]

- **جهوده ضد المغول:**

لم ينس المغول ما حل بهم في موقعة عين جالوت، فظلوا يتطلعون إلى الثأر لما حدث لهم، فرأى بيبرس أن يتحالف مع مغول القفجاق وتزوج ابنة زعيمهم بركة خان، الذي اعتنق الإسلام، وقد تم تبادل الرسائل والسفارات بين بيبرس وبركة خان، بل ظلت تتبادل هذه

الرسائل والسفارات بين سلاطين المماليك البحرية وخانات مغول القفجاق (أو مغول القبيلة الذهبية)، وقد بلغ عدد السفارات المتبادلة بينهما نحو أربعين سفارة منها تسعة في عصر الظاهر بيبرس، غير أن بيبرس لم يعتمد كل الاعتماد على هذا التحالف بل خرب الطرق والوديان المؤدية إلى بلاد الشام حتى لا يجد المغول إذا تقدموا ما يحتاجون إليه من الميرة، كما أن هولاكو تحالف مع الصليبيين في الشرق وخاصة مع ملك أرمينية لكي يقوى بذلك على صد هجمات بركة خان وسلطان المماليك بمصر، [49]وبعد وفاة طاغية التتار هولاكو عام 663، تولي مكانه ابنه أبا قاخان، وبدأ يتصل بالصليبيين إذ كان يعطف على النصارى، وتزوج ابنة إمبراطور القسطنطينية، وقد حاول أبا قاخان أن يعقد صلحاً مع المماليك مقابل الخضوع له، غير أن الظاهر بيبرس رفض ذلك، فأغار المغول على الرحبة، فأرسل بيبرس حملة انتصرت على التتار عند نهر الفرات.[50]

ففي سنة 663هـ/1265م، وصل إلى الظاهر بيبرس أن التتار أغاروا على قلعة البيرة الحصينة الواقعة على نهر الفرات وحاصروها بغية الاستيلاء عليها، فجهز جيشاً لمحاربتهم، ثم سار هو بنفسه حتى وصل إلى غزة ومنها واصل سيره شمالاً ولكن وافته الأنباء بأن المغول حينما علموا أن عساكره المصرية أشرفت على البيرة سارعوا بالفرار تاركين وراءهم عِددهم وأثقالهم، وقد أمر بيبرس بعمارة ما خرب من البيرة وبحمل آلات القتال إليها من مصر والشام، وبإعداد كل ما يحتاج إليه أهلها في الحصار لمدة عشر سنين،[51]وفي سنة 671هـ/1272م توجه بيبرس لملاقاة التتار على أرضهم، فحمل عدة مراكب مفصلة أجزاء على ظهور الجمال وأنزلها في نهر الفرات لتعبر بها جيوشه، واستطاع بيبرس وجنوده عبور النهر والانتصار على الجيوش المغولية ومطاردة فلولها في الأراضي العراقية سنة 672هـ /1273م، حيث بنجاح بيبرس في هذه الحملة استطاع أن يؤمن حدوده الشرقية من الخطر المغولي.[52]

وبعد أن أمن حدوده الشرقية، أراد تأمين حدوده الشمالية، فاتجه الظاهر بيبرس عام 675 إلى آسيا الصغرى منطقة سلاجقة الروم الذين وقفوا بجانب التتار، فالتقى بجيش تتاري فهزمه وقتل سبعة آلاف رجل منه، ودخل قيصيرية حاضرة سلاجقة الروم، ولكنه لم يستطع تقوية حصون آسيا الصغرى التي احتلها للوقوف في وجه التتار،[53] ويأخذ بعض المؤرخين على بيبرس أنه لم يعد إلى بلاد سلاجقة الروم لحمايتها وطرد المغول منها بحكم أنها

صارت تابعة لدولة المماليك رسمياً، ولكن ربما كان السبب في ذلك أن بيبرس في ذلك الوقت تولاه التعب أو المرض بدليل أنه توقي في تلك السنة.(54)

وكانت هذه آخر أعمال السلطان الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري، فبعد هذه الأحداث بوقت قصير توقي السلطان وهو في قمة حياته الحافلة بالنشاط السياسي والعسكري، في الثامن والعشرين من شهر المحرم سنة 676هـ/ 30 يونيو 1277م، بعد أن تجاوز الخمسين عن عمره بعد فترة حكم طالت إلى سبع عشرة سنة وشهرين واثني عشر يوماً، وكانت وفاته في دمشق فدفن قرب داريا ببلاد الشام حسب وصيته.

هكذا جاءت نهاية بطل من أبطال تاريخ المسلمين، كان ملء العين والقلب، أحبه الناس ولهجوا بسيرته، وأضافوا إليها الكثير من خيالهم لأنه كان يسير على طريق تحقيق أماني الأمة ومحاربة أعدائها.(55)

الخاتمة:

نبغ من بين المماليك الذين استكثر منهم الملك الصالح نجم الدين أيوب عدة رجال كان لهم أثر كبير في تغيير مجرى السياسة المصرية، كان أشهرهم بيبرس، وقد أجمع المؤرخون على أنه ولد ببلاد القفجاق، ثم بيع لأحد تجار الرقيق على إثر هجوم المغول على هذه البلاد سنة 640هـ/ 1242م، وقد قدم به هذا التاجر إلى حماة، ولما عرضه على الملك المنصور محمد صاحب حماة لم يعجبه فبيع بدمشق بثمانمائة درهم ثم رده مشتريه لبياض في إحدى عينيه، فاشتراه الأمير علاء الدين أيدكين البندقدار مملوك الملك الصالح نجم الدين أيوب، فاتخذه رئيساً لإحدى فرق حرسه الخاص، لما رأى فيه من الهمة والفطنة والذكاء، وظل يرتفع ذكره ويسمو قدره، ويتدرج في المناصب حتى أصبح قائداً لفرقة المماليك التي كان لها الفضل الأكبر في هزيمة حملة لويس التاسع في المنصورة، ثم شارك أمراء المماليك في التخلص من توران شاه وتولية شجرة الدر عرش السلطنة المصرية، ولم يول يترقى إلى أن قُتل فارس الدين أقطاي، فخرج بيبرس من القاهرة مع الفارين من المماليك البحرية، وتنقل في بلاد الشام إلى أن عاد إلى مصر مرة أخرى على عصر السلطان قطز، وخرج معه إلى قتال المغول فأبلى بلاءً حسناً، وكان له فضل كبير في انتصار عين جالوت، ولكنه اضطر إلى قتل سيف الدين قطز حينما رفض منحه ولاية حلب، وعاد بيبرس إلى القاهرة وجلس على عرش السلطنة في 19 ذي القعدة 658هـ، ويعتبر السلطان الظاهر

بيبرس هو المؤسس الفعلي لدولة سلاطين المماليك، التي ظلت تقوم بدور القوة المدافعة عن الحضارة العربية الإسلامية على مدى ما يزيد على القرنين ونصف من الزمان، حيث أنه:

1- إن معركة المنصورة وفارسكور ضد الصليبيين، ثم معركة عين جالوت بعد عشر سنوات ضد المغول، أثبتتا قدرة فرسان المماليك في الدفاع عن دار الإسلام، ولكن هذا لم يكن كافياً لإضفاء الشرعية على دولتهم.

2- كان لدهاء وحنكة بيبرس الفضل الأكبر في الانتصار على التتار في موقعة عين جالوت.

3- بدأ الظاهر بيبرس تاريخه السياسي بالعمل على توحيد الجبهة الداخلية في المنطقة العربية.

4- إن جهود السلطان الظاهر بيبرس في توحيد المنطقة العربية هي التي جعلت دولته تحظى باحترام القوى العالمية المعاصرة على المستوى الخارجي.

5- استطاع الظاهر بيبرس القضاء على الحركات المناهضة لحكمه، وأعاد الأمن والسكينة إلى البلاد.

6- في بداية حكمه، قام الظاهر بيبرس باستمالة عامة الناس في مصر بتخفيف عبء الضرائب عنهم.

7- إحياء الظاهر بيبرس للخلافة العباسية في القاهرة سنة 659هـ / 1260م، يعد من أهم أعماله بعد أن قضي عليها التتار في بغداد، وهذاما أكسبه سلطة شرعية مدعومة بموافقة الخليفة العباسي.

8- قام الظاهر بيبرس بأعمال مهمة في البلاد؛ كحفر الترع، وإصلاح الحصون، وتأسيسِ المعاهد، وبناء المساجد، كما قوى الجيش واستحضر أعداداً كبيرة من المماليك.

9- حرص الظاهر بيبرس على الإصلاح الداخلي،فطور الجهازين الإداري والعسكري، حيث استحدث بعض الوظائف الإدارية؛ لأن الوظائف التي عرفها المماليك وأخذوها عن الأيوبيين أصبحت لا تفي بحاجة الدولة الآخذة في التطور والتوسع.

10- كرس الظاهر بيبرس همته في محاربة الصليبيين.

الهوامش:

1)ايرا لابينوس، مدن الشام في العصر المملوكي، دار حسان، دمشق، 1985، ص16.

(2) هادية برهان الدجاني، الصراع الإسلامي الفرنجي على فلسطين في القرون الوسطى، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، 1994، ص405، 406.

2)تاج الدين عبد الوهاب السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، تحقيق محمد علي النجار، دار الكتاب العربي، القاهرة، 1948، ص44، 45.

3)تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، لجنة التأليف والترجمة، القاهرة، 1973، ج3، ص1015.

4)أبو اليمن مجير الدين العليمي الحنبلي، الانس الجليل بتاريخ القدس والخليل، مكتبة دنديس، الخليل، ج2، ص281.

5)تاج الدين عبد الوهاب السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، مصدر سابق، ص25.

6)أبو اليمن مجير الدين العليمي الحنبلي، مصدر سابق، ج2، ص371.

7)أحمد علي الفلفشندي، صبح الأعشى في صناعة الانشا، دار الكتب، القاهرة، 1920، ج4، ص241.

8)تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، السلوك، مصدر سابق، ج4، ص18.

9)أبو المحاسن ابن تعزي بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، دار الكتب، القاهرة، 1963، ج6، ص20.

10)تاج الدين عبد الوهاب السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، مصدر سابق، ص26.

11)تاج الدين عبد الوهاب السبكي، معيد النعم ومبيد النقم، مصدر سابق، ص33.

12)ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، تعليق: محمد حسين شمس الدين، ط1، ج2، 1992، ص762.

13)المقريزي، السلوك،مصدر سابق، 520/1.

14)المقريزي، السلوك،مصدر سابق، 520/1.

15)عز الدين محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد، تاريخ الملك الظاهر، تحقيق أحمد حطيط، المعهد الألماني للأبحاث الشرقية، بيروت، 2009، ص18.

16)ابن تغري بردي، مصدر سابق، د7، ص103.

17)عصام محمد شبارو، السلاطين في المشرق العربي، معالم دورهم السياسي والحضاري، (المماليك)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1994م ، ص16

18)المقريزي، السلوك،مصدر سابق، ص515

19)محمد عماد، معارك العرب ضد الغزاة، ط3، المركز العربي الدولي، 1991م، ص127.

20)أحمد مختار العبادي، قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1986م ، ص161، 162.

21)راغب السرجاني، قصة التتار من البداية إلى عين جالوت، ط1، مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، القاهرة، 2006م، ص314، 315.

22)راغب السرجاني، المرجع السابق، ص318 – 321.

23)راغب السرجاني، المرجع السابق، ص 321 – 324.

24)المقريزي، السلوك، مصدر سابق، ج1، ص439.

25)حمدي عبد المنعم محمد حسين، دراسات في تاريخ الأيوبيين والمماليك، دار المعرفة الجامعية، 1996، مصر، ص166، 167.

26)ابو الفدا عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن شاهنشاه بن أيوب، المختصر في أخبار البشر، تحقيق محمد زينهم عزب، يحي سيد حسين، المطبعة الحسينية المصرية، القاهرة، ج3، ص209 – 211.

27)عصام محمد شابارو، مرجع سابق، ص17.

28)حمدي عبد المنعم محمد حسين، مرجع سابق، ص166.

29)المقريزي، السلوك، مصدر سابق، 1/ 436.

30)محمد بن نصر الله ابن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق جمال الدين الشيال وآخرون، دار الكتب والوثائق القومية، 1957، ج2، ص397 – 399.

31)محمود شاكر، موسوعة التاريخ الإسلامي: العهد المملوكي، الجزء (7)، ط5، المكتب الإسلامي، بيروت، 2000، 47/7.

32)قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 2001، ص219.

33)تقي الدين أبي العباس أحمد المقريزي، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، المعروف بالخطط المقريزية، الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، ج1، ص601.

34)المقريزي، السلوك، ج1، ص553.

35)محي الدين ابن عبد الظاهر، تشريف الأيام والعصور في سيرة الملك المنصور، تحقيق كامل مراد، القاهرة، ط1، 1961، ص89 – 93.

36)المقريزي، السلوك، مصدر سابق، ج1، ص448 – 449.

37)قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مرجع سابق، ص216

38)محمد سهيل طقوش، تاريخ المماليك في مصر والشام، دار النفائس، بيروت، 1999م ، ص119

39)محمود شاكر، مرجع سابق، 47/7.

40)المقريزي، السلوك، مصدر سابق، 1/ 436.

41)قاسم عبده قاسم، ماهية الحروب الصليبية، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة، الكويت، 1990م، ص131.
42)عصام محمد شابارو، مرجع سابق، ص20.
43)المقريزي، السلوك، مصدر سابق، ج1، ص536 – 568.
44)عصام محمد شابارو، مرجع سابق، ص20.
45)المقريزي، السلوك، مصدر سابق، ج1، ص601،
46)سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية، مكتبة النهضة، القاهرة، (ب. ت)، ص47– 48.
47)السيد عبد العزيز سالم، طرابلس الشام في التاريخ الإسلامي، الإسكندرية، 1967، ص 269.
48)حمدي عبد المنعم محمد حسين، مرجع سابق، ص178.
49)حمدي عبد المنعم محمد حسين، مرجع سابق، ص178، 179.
50)محمود شاكر، مرجع سابق، 50/7، 51.
51) حمدي عبد المنعم محمد حسين، مرجع سابق، ص 179.
52)حمدي عبد المنعم محمد حسين، مرجع سابق، ص 181.
53)محمود شاكر، مرجع سابق، 51/7.
54)حمدي عبد المنعم محمد حسين، مرجع سابق، ص182.
55)قاسم عبده قاسم، في تاريخ الأيوبيين والمماليك، مرجع سابق، ص238.